التمثيل الثقافي- قراءة في المفهوم -

- Cultural representation - a reading in the concept-

طالب دكتوراه/ عطا الله عبد الباقي

طالب دكتوراه/ الديب حامة

قسم اللغة والأدب العربي- جامعة محمد لمين دباغين- سطيف

مخبر انتماء طالب الدكتوراه: النقد المعاصر وتحليل الخطاب

atallahabdelbaqi@gmail.com

dibhama@gmail.com

تاريخ الإيداع: 2020/10/04 تاريخ القبول: 2021/03/23 تاريخ النشر: 2021/09/15

ملخص:تسعى هذه الدراسة إلى الوقوف على مفهوم التمثيل الثقافي في الدراسات الثقافية، باعتبار التمثيل كاشفا لمضمرات الخطاب في النصوص الأدبية و الفلسفية على السواء،و باعتباره مفهوما مضيئا لجملة التصورات التي تحملها الذات على الآخر و العالم، فقد تناولنا في دراستنا هذه على مفهوم التمثيل الثقافي في الدراسات الثقافية.

الكلمات المفتاحية: الخطاب ، الأنساق الثقافية،التمثيل الثقافي، التمثيل المضاد.

Abstract: This study seeks to identify the concept of cultural representation in cultural studies , as cultural representation reveals the discourses in both literary and philosophical texts, As a concept that led to a whole range of perceptions carried by the ego on the others in the world, we taked in this study the concept of cultural, This study seeks to identify the concept of cultural representation in cultural studies.

Key word: discourat, system culturs , cultural representations, counter representation .

يحظى النقد الثقافي اليوم باهتمام النَقاد و المفكرين*، في مجال الأدب خاصة و المجالات المعرفية عامة، و تعود هاته الحظوة إلى طابعه الموسوعي،إذ ارتبط نظريا و منهجيا و معرفيا

بالعديد من التخصصات كالأنثروبولوجيا،السوسيولوجيا، السيكولوجيا والتاريخ، و الفلسفة و علوم الاتصال. حيث يتسم بالتخصص العميق الذي يسبر أغوار القضايا الفكرية و الإنسانية في دقائقها .

و تجدر الإشارة إلى أنَ النقد الثقافي استفاد بشبكة مصطلحية متعددة الاختصاصات و المنطلقات الفكرية و الفلسفية، كونه لا يمتلك آلياته، بل يرتكز على تبنيّ هاته الآليات و المصطلحات النقدية من المناهج المجاورة كونه نقدا شموليا منفتحا، ولهذا وقفنا عند مصطلح التمثيل الثقافي الذي يعد من أهم القضايا التي تناولتها الدراسات الثقافية، و خاصة و أنّه مجال تتقاطع فيه اختصاصات معرفية و فلسفية بالغة التنوع، و ينبغي الإشارة إلى أنّه قد تطرق إلى مِثْلِ هذه الدراسة مجموعة من الباحثين نذكر على سبيل المثال الباحث المغربي إدريس الخضراوي الذي تناوله في كتابه " الأدب موضوعا للدراسات الثقافية" هذا الأخير عالج المفاهيم المركزية(التمثيل،المتخيل،مسألة الآخر)عند الناقد البحريني نادر كاظم في كتابه "تمثيلات الآخر" صورة السود في المتخيل العربي الوسيط. فلماذا اكتسى التمثيل الثقافي هذه الأهمية المعرفية في المجال النقدي رغم حداثته عهده ضمن هذا الاختصاص؟

1 الأسس الفكرية والفلسفية لمصطلح التمثيل:

يكتسي مصطلح "التمثيل Représentation" أهمية بالغة في الدراسات الأدبية والفلسفية، حيث يمكن أن نقرأ على ضوئه المسارات و التطورات الفنية في الفن عموما، و نستجلي من خلاله علاقة الأدب بالواقع و تنوع المقاربات التي تتقصاها .

سنحاول من خلال هذا العنصر شرح مفهوم التمثيل، مستعرضين التطورات النقدية التي تناولته، سواء بوصفه معطى ضمن ثنائية الأدب و الواقع، أو بطرحه ضمن مفهوم الكتابة نفسها، وسنركز على الخلفيات والأسس الفكرية لمصطلح التمثيل و تطوره، في أبعاده المرتبطة بصورة الواقع، و صورة الأدب في التمثيل الثقافي.

فمصطلح التمثيل هو "وضع الشيء أمام المحسوسية تُدْرَك من خلال الصورة العلامة أو الأيقونة "[1] ،أي يستخدم في علم العلامات، و بأنَ وظيفة اللغة عن الأشياء، أي أنَ تحيل على واقع غير لغوي، ومن هذا المنطلق عدت الكلمات علامات تمثل أشياء العالم،و تقوم فكرة التمثيل أدبيا كان أم غير أدبي على وجود ثلاثة عناصر:المثِل والممثَل و الصورة التي تنتج عملية التمثيل، و قد منح بيرسPeirce في تصوره السيميائي للعلامة فعالية تمثيلية لا متناهية حين جعل " موضوع التمثيل لا يسعه أن يكون سوى تمثيل يكون تمثيله الأول تعبيرا، فسلسلة من التمثيلات لا نهاية لها، وكل منها يمثل ما وراءه، إذ لا تجد مدلولا آخر للتمثيل سوى التمثيل"[2]، وقد ارتبطت خاصية التمثيل في الأدب بقدرته على الإرجاع إلى عوالم، أشخاص، مواضيع، معتقدات ..وأشياء خارجة عنه.

والمتتبع في المعاجم الإنجليزية يميز بين ثلاث معان للتمثيل و مشتقاته: المعنى الرمزي، و المعنى السياسي، و المعنى المعرفي.

المعنى الرمزي(القرن الخامس عشر) يرادف إلى حد ما معنى العلامة، وفي المعنى السياسي يكون التمثيل وظيفة الممثلينrepresentatives (القرن السادس عشر) الذين يفهمون بمعنى "من يحدثون بالنيابة"؛ وقد يكون معنى التمثيل شخصية معينة من لدن التمثل، و هو المعنى الذي يعود تاريخه إلى القرنين السادس عشر و السابع عشر، أقرب إلى هذا المعنى من المعنى الرمزي، ومثال ذلك في الديمقراطيات البرلمانية يتخذ النواب و الممثلون القرارات بالنيابة عن السكان الذين يمثلوهم، و بهذا المعنى تصبح الديمقراطية التمثيلية ديمقراطية المشاركة.

وفي المعنى المعرفي(القرن الرابع عشر) يظهر التمثيل على أساس التكوين العقلي للمعرفة على أنَ إيان هاكينغHacking and يرى أنَ التمثيلات العقلية قد أزاحتها التمثيلات الشعبية في فلسفة القرن العشرين: ف"الأفكار" (القرن السابع عشر) و الجمل (القرن العشرون) مسؤولة عن تمثيل الواقع قي كتلة المعرفة، و إذا كان مصيبا، فلم يعد هذا المعنى يتميز عن المعنى الرمزي.[3]

فالمصطلح التَّمْثِيل، كما يذهب إلى ذلك المفكر الفرنسي ميشيل فوكو Foucault, Michel** في كتابه الكلمات و الأشياء، قد هيمنت في الثقافة الغربية، على نظام معرفي بكامله، هو النظام الذي ساد في العصر الوسيط، واستمر حتى عصر النهضة.

يشير هذا المفكر الفرنسي الراحل، إلى أن مقولة التشابه (La ressémblance)، كان لها دور كبير، في تنظيم و إنتاج المعارف في مرحلة معينة من تطور الثقافة الغربية، سادت حتى عصر النهضة.و يوضح في هذا السياق إنّ للتمثيل "قدرة لا حد لها، على ربط العلاقات، و إقامة التشابهات. فمن نقطة واحدة، يُمكن إنشاء عدد لا يحصى من العلاقات، و أشكال غير مرئية من التقارب. و عن طريق "التَّمْثِيل"، يمكن أيضا أن نقارب بين جميع الأشكال و الأشياء في العالم، مهما بلغت اختلافاتها... في فضاء "التَّمْثِيل" المتعدد الاتجاهات، هناك نقطة انطلاق بارزة هي الإنسان... فالتَّمْثِيل يتعلق بالإنسان، و يدور حول اهتماماته و مشاغله ومشاكله ومخاوفه".[4]

و الاستدلال بالتَّمْثِيل من القُدُرَات و الآلِيَّات الذهنية عند الإنسان، يستعملها كأداة للمقاربة و للاستكشاف، و ربط العلاقات بين الظواهر والأشياء من مناظير متعددة. وقد استُخْدِمَت آلية التَّمْثِيل بكثرة، من طرف الفلاسفة في العصر الوسيط. و غَرَضُهم استعمال هذه الآلية، هو تقريب و تفهيم أشياء غيبية مثل ماهية الله و صفاته رغم استحالة الإحاطة بهاته الماهية.

عندما تناول أرسطو موضوع التَّمْثِيل في كتاب الخطَابة، و كتاب الشعر، وحَلَّل بعض النماذج منه، كان في مُعظم الأحيان يرمي من وراء ذلك، إلى التعبير عن فكرة وجود تماثُل و تناسب بين علاقات معينة، شبيه بالتناسب الهندسي كما وردت صيغته عند إقليدس في كتاب المبادئ.

وكان يعرضه في الصيغة التالية نقول: إن هناك تمثيلا عندما تكون علاقة الحد الأول "أ" بالحد الثاني "ب"، هي كنسبة الحد الثالث "ج" إلى الحد الرابع "د"[5].

كما يوضح مجدي وهبة في معجم مصطلحات الأدب، أنَ التمثيل يشكّل أساس نظرية أرسطو في ماهية الشعر و غيره من الفنون البشرية و هو يقتبس من أرسطو ما يلي" فشعر الملاحم و شعر التراجيديا و كذلك الكوميديا و الشعر الأثورمبي، و أكثر ما يكون من الصغر في الناي و اللعب بالقثارة- في تلك بوجه عام أنواع من المحاكاة، و يفترق بعضها عن بعض على ثلاثة أنحاء: إما باختلاف ما يُحاكِي به أو باختلاف ما يحاكَى أو باختلاف طريقة المحاكاة، فكما أنَ من الناس من يحاكون الأشياء و يمثلونها بحسب ما لهم من الصناعة أو العادة بألوان و أشكال، و منهم من يفعل ذلك بوساطة الصوت، فكذلك الأمر في الفنون الأخرى التي ذكرناها، فجميعها تحدث المحاكاة بالوزن و القول و الإيقاع، إما بواحد منها على انفراد مجتمعه.[6]

ولعل ما يتبين من مقولة أرسطو "أنَ التمثيل المتحقق عن اللغة يكون إما بالشعر أو بالنثر و في الحالتين معا فإنَ اللغة، بما هي كلمات منتظمة في جمل، تتخذ تفويضا تحلَ بمقتضاه محل شيء آخر لتمثيل واقع آخر، حيث تصبح الكلمات مجرد علامات و تمثيل للأشياء"[7]، فاللغة وسيلة و أداة يلجأ المبدع إلى تمثيل المشاعر و الأحاسيس و الرؤى التي تتموقع في كيانه.

و من المؤكد أنَ الاستدلال بالتَّمْثِيل لم تكُن له حظوة كبيرة عند هذا الفيلسوف، سواء في منطقه، أو في مقالاته الميتافيزيقية. بل إنَ انتقاصَه من القيمة المعرفية لهذا النوع من الاستدلال، كان مُعْلَناً وصريحاً، و خاصة عندما كان يبتعد كثيرا عن شكل التناسب الرياضي السابق الذكر. ففي هذه الحالة كان يعتبره مجرد وسيلة للتأثير والإيحاء. و لا ننسى في هذا السياق، أنّ أرسطو طالما آخذ على أستاذه أفلاطون لُجُوءَهَ المفرِط إلى استعمال المتَخَيَّل بأصنافه، في شرح نظريته عن الحقيقة.

و معروف عند المناطقة و الإبستمولوجيين أنّ بنية التَّمْثِيل و التماثل، رغم مرونتها، و رغم ما تسمح به من ربط لعلاقات متعددة، لا تُفضِي إلى إثبات تطابق وهُوية بين موضوعين، و لا إلى تقارب موضوعي وواقعي بين طبيعيتين. بل إنَ كل ما تسمح به في هذا المجال، هو الانتقال الذهني من علاقة معينة بين حَدَّين، إلى علاقة أخرى يفترض أنها مشابهة لها.

يوضح ادريس الخضراوي في كتابه الرواية العربية و أسئلة ما بعد الاستعمار أنَ التمثيل يجد تحققه في صورتين اثنتين:

- قد يأتي التمثيل على شكل صورة أو أيقونات أو رسوم أو أشكال متنوعة.
- وقد يأتي عن طريق اللغة، إذ يمكن الحديث في هذه الحالة عن تمثيل مكتوب أو شفهي يحتمي فيه صاحبه بالبلاغة المخيلة من أجل تركيب الصورة المبتغاة حول موضوعه.[8]

تشير فلسفات اللغة إلى أنّ التمثيلات ذات مغزى و ذلك نتيجة لوجود نظام من العلامات التفاضيلة التي تولد المعاني من خلال الاختلاف. أي أنّ المعنى علائقي و غير مستقر بدلا من كونه إحالي و ثابت. فالتمثيل يمنح الأشياء و الممارسات الاجتماعية المعنى و الوضوح و يقوم بالتالي بإنشاء خرائط للمعنى التي تعد مؤسِّسَة للثقافة. و عليه فإنَ البحث في الثقافة غالبا ما اعتبر أمرا يقوم على اكتشاف عمليات التمثيل. و الثقافة ليست مجرد مسألة تتعلق بالتمثيلات، بل هي أيضا ممارسات وترتيبات

مكانية، ومع ذلك يمكن التأكيد على أنّ عملية التمثيل هي التي تعطي للممارسات المختلفة المغزى و الدلالة.

2/ مصطلح التمثيل الثقافي في الدراسات الثقافية:

انفتح مصطلح التمثيل على الدراسات الثقافية ليحمل معنى التثاقف، ومنه يدخل الدراسات الثقافية ليصبح تحت اسم "التمثيل الثقافي"، و توسع على يد الباحثين في هذا المجال. على سبيل مثال ميشال فوكو، إدوارد سعيد،....

يعرف أرثرأيزابرجر النقد الثقافي هو " نشاط و ليس مجالا معرفيا خاصا بذاته و إنّ نقاد الثقافة يطبقون المفاهيم و النظريات على الفنون الراقية و الثقافة الشعبية و الحياة اليومية و على حشد من الموضوعات المرتبطة، و بمقدور النقد الثقافي أن يشمل نظرية الأدب و الجمال و أيضا التفكير الفلسفي و تحليل الوسائط و النقد الثقافي الشعبي، و بمقدوره أن يفسر نظريات و مجالات علم العلامات و نظرية التحليل النفسي و النظرية الماركسية و النظرية الاجتماعية و الأنتروبولوجية إلى آخره، و دراسات الاتصال و بحث وسائل الإعلام و الوسائل الأخرى المتنوعة".[9]

يعدّ النقد الثقافي حسب هذا المفهوم نشاطا معرفيا منفتحا على جملة من التخصصات المجاورة للأدب أبرزها التحليل النفسي و النقد الماركسي و علم العلامات و علمي الاجتماع و الأنتروبولوجيا.

كما يعرفه محسن جاسم الموسوي بأنه" عبارة عن فاعلية تستعين بالنظريات و المفاهيم و النظم المعرفية لبلوغ ما تأنف المناهج الأدبية المحض المساس به أو الخوض فيه".[10]

بما أنّ النقد الثقافي هو نشاط إنساني يمارس في إطار جملة من فعاليات الثقافية التي تختلف من مجتمع إلى آخر فإن الممارسة الفعلية لهذا النشاط هي تفسير نظرايات الابستمية و محاولة تأويل العلامات و أيقونات الدالة على تلك القيم المعرفية .

2-1التمثيل الثقافي:

التمثيل مصطلح فلسفي يوحي، إذ يستخدم في علم العلامات، بأنّ وظيفة اللغة أن تنوب على الأشياء أي "إنّ المعنى الشائع لمفهوم التمثيل يعني مجموعة من العمليات التي من خلالها ترمز الممارسات الدالة أو تصف موضوع أو ممارسة في العالم الحقيقي و بالتالي، فالتمثيل فعل ترميزي يعكس الواقع. إلا أنّه بالنسبة للدراسات الثقافية، لا يعد مجرد انعكاس في شكل رمزي لأشياء الواقع، بل التمثيلات مؤسسة لمعنى ما تدعي أنه بديل، بمعنى أنّ التمثيلات لا تنطوي على مطابقة بين العلامات و الأشياء بل تنشأ أثرا تمثيليا للواقع"[11]. وبتعبير آخر فإنّ التمثيل في الدراسات الثقافية ليس هو نفسه بمفهومه العام؛ من حيث إنّ الصورة المستحدثة في النص الإبداعي لا يمكن اعتبارها الواقع ذاته وإنما هي بديل عنه من حيث هي تختلف عن هذا الواقع؛حيث يحاول الكاتب أن يعدله وفق مزاجه الخاص/ أو رؤيته الذاتية سواء عن قصد أو عن غير قصد؛ ولعل المراد

بالقول: "التمثيلات (...) تنشأ أثرا تمثيليا للواقع" هو ذلك الأثر الذي يعكسه الواقع في نفس الكاتب مما يجعل هذا الأخير يعكس انطباعه في النص المبتدع.

إنَ مفهوم التمثيل يرتبط عادة بالقوة، فهو عند ميشال فوكو آلية من آليات الهيمنة و الإخضاع و الضبط. لهذا تلجأ الثقافة عادة لتمثيل الآخر و ثقافته بغية السيطرة عليه، ومن آليات التمثيل الثقافي تحقير الآخر بتنميطه و السيطرة على ممكناته بإعادة بنائه ثقافيا، و التمثيل إخضاع أيديولوجي له دوافعه و أشكاله المختلفة؛ وهذا لا يعني أنَ التمثيل يقتصر على القوة و السيطرة بل يوجد تمثيل آخر مهم يتم باللغة و البلاغة[12]، فمن خلال ميشال فوكو أنّ التمثيل علامة من علامات القوة والسيطرة إلا أنّه تجاوز ذلك إلى أمر مهم و يتم ذلك باللغة و البلاغة، و يرى نادر كاظم أنّ الحضارة العربية الإسلامية " لما كانت في الماضي قوية و تمتلك عناصر القوة و الهيمنة العسكرية و الثقافية اتسع حجم تمثيلها الآخر و لاسيما السود، و يظهر ذلك واضحا من جملة ما كتب عنهم من طرف الرحالة و المنجمين و الرواة و الشعراء من أجل إثبات الصورة التي وضعتها للآخرين و مدى ترسيخها"[13] وترجع دونية هذا التمثيل و نمطيته إلى تضافر عنصري القوة و المعرفة ، ووظف نادر كاظم مقولات كل من ميشال فوكو و ادوارد سعيد،ونجد هذا الأخير قام بتحليل التمثيل التعسفي للشرق و سكانه على نحو مشوه، والحركة النسوية الغربية التي فككت خطاب الذكوري الذي قدم النساء كجنس دوني، و الدراسات الثقافية والنقد الثقافي اللذين اشتغلا نقديا على تعرية النصوص الأدبية، وركام الثقافة الجماهيرية التي ترسم صورا للشرائع الشعبية و للطبقات العمالية على أساس أنها تفتقد إلى الفاعلية وأنها محكوم عليها بالتبعية، ويمكن في هذا السياق أن نذكر فكرة الاستشراق التي لا يعني فقط دراسة الشرق بهدف فهمه، بل إنَه كما يرى إدوارد سعيد تمثيل ثقافي يهدف إلى إبراز ضعف الشرق و بالتالي تأكيد سهولة إختراقه و الاستيلاء عليه، وبهذا المعنى كان الاستشراق و الاستفراق (دراسة العربي للإفريقي) خطابا متماسكا يستفيد من ممكنات التمثيل التي تحصن ذاته في مواجهة الآخر.

و المتتبع لدراسات ادوارد سعيد***Said, Edwardفي قراءته للنص الثقافي الغربي يجده يعتمد على مفهوم التمثيل الثقافي، ذلك أن الاستقصاءات العميقة التي أنجزها في هذا النص، أبرزت ما لهذا المفهوم المتداول في المناهج و النظريات النقدية و الثقافية الحديثة، من " دور بالغ الأهمية في كشف تورط الرؤى في إعادة صوغ المرجعيات وفق موقف نمطي ثابت، يحيل على تصور جامد ذي طبيعة جوهرانية مغلقة، الأمر الذي أفضى إلى سلسة من عمليات التمثيل التي يمكن اعتبارها وثائق رمزية دالة على العلاقة بين المرجع الفكري و تجلياته الخطابية". [14]

و يوضح لنا إدريس الخضرواي أن قراءة الاستشراق في ضوء هذا المفهوم تحفز على" إعادة النظر في الطريقة التي تعاملت بها الثقافة الغربية الحديثة مع الثقافات الأخرى المغايرة لها،

بكل ما يحكم ذلك التعامل من استعلاء و عرقية دينية و ثقافية، فإنها تدفع للذهاب إلى أبعد من فعالية الاستشراق ذاتها، إلى القول بأنَ التمييزات التي كرَست المسافة بين الشرق و الغرب...وهو الانقسام الذي ما كانت لتبنى المعرفة به لولا الدراسات المضادة حول الاستشراق التي نشطت سيلا من الكتابات المقاومة من داخل الثقافة الغربية، و بالاعتماد على أدوات هي من إنتاج الحقل المعرفي لهذه الثقافة". [15] من خلال دراسة فكرة إدريس الخضراوي عن الاستشراق نلحظ هناك تمايز في توظيف المصطلح حيث يرى الدارس الغربي للحضارة العربية ما قام به الغرب هو مزية و امتنان سعى من خلاله الغرب إلى تنوير المجتمع العربي ونفض الخبار عن تراثه الثقافي في حين يرى الدارس العربي أن الاستشراق هو استعمار مقنع و هيمنة مقننة .

وبعد مرور أكثر من عقد على صدور كتاب " الاستشراق"، يوضح لنا إدوارد سعيد أنَ ثمة هناك ثورة قد حدثت في وعي النساء و الأقليات و المهمشين على درجة من القوة إلى حد التأثير على تيار الفكر الرئيسي في العالم أجمع. [16]

2-2 التمثيل المضاد

إذا كان التمثيل هيمنة و ضبطا فإنّ المضاد منه مقاومة رافضة للواقع ولصورة الثقافية المهيمنة، غير أنّه إذا أرتبط بالمؤسسة الرسمية فإنَه يسخر إمكانيات لا يمكن أن تكون متاحة في الغالب للفرد، لأنَ هذا الأخير محكوم بطقوس المؤسسة و ضوابطها، كما أنّه لا يبقى أسيرها، بل إنَ هذه الأخيرة تشيع ثقافته بين أفراد المجتمع من خلال مناهجها التعليمية و الثقافية و الدينية و السياسية و الإعلامية، "فأغلب الثقافات تسعى إلى الهيمنة على الآخر إما باللجوء إلى ممارسة العنف المادي باستخدام قوة اليد أو السلاح، أو ممارسة عنف رمزي ملطف إيديولوجيا"[17] و تبعا لذلك فإنَ الفرد الذي سيتحرر من قيود الصيغة الرسمية التي كان ينتمي إليها فإنّه سيواجه بالمقابل تمثيلا ثقافيا مشاعا داخل المجتمع و هو الأمر الذي سيؤدي به إلى أن يدخل في صراع مع أنماط أخرى منه و مثال ذلك تفشي ظاهرة التطرف في المجتمع العربي، فإنّ المتطرف يرى من منظوره أنّ المؤسسة الرسمية تُخْضِعُه إلى خطاب ديني مشترك يمارسه كل أفراد المجتمع فيحاول هذا المعني التحرر من قيود المؤسسة المجتمعية لكونه يمارس حرية فردية تخول له حرية الممارسة لذلك سيواجه صراعا مع التمثيل المهيمن.

فالتمثيلات ليست إنعكاسات محايدة في نقلها للواقع بل هي إنشاءات ثقافية، تخالف ما قد يبدو لنا، و هنا ترتبط بشكل جوهري بمسألة السلطة من خلال عملية الانتقاء و التنظيم، والتي يجب أن تكون حتما جزءا من تشكيل التصورات. و تتجلى سلطة التمثيل في تمكين بعض أنواع المعرفة من التواجد مع استبعاد طرق أخرى من التفكير، و كنتيجة لذلك، غالبا ما تحدّث كتّاب الدراسات الثقافية عن سياسات و ضدّه. فعلى سبيل المثال: هوية الرجل الأسود الدونية التي يمارسها عليه الرجل الأبيض لا تعكس بالضرورة حالة جوهرية للوجود و إنما تعد حالة ممثّلة و

مقروءة. و لقد أكد ستيوارت هال أنّ سياسات التمثيل يجب أن تسجل اعتباطية الدلالة و تولد الرغبة في العيش تحت ظل الاختلاف. بمعنى أنّ هاته تستفسر عن علاقات السلطة الكامنة في صيغة السواد، و في الوقت نفسه تفكك المفهوم العميق لثنائية (الأبيض – الأسود).

يرى نادر كاظم أنَ الشعر العربي الذي كان يصدر عن الشعراء السود آنذاك هو بمثابة الخطاب المضاد للخطاب العربي، كما جاء في السيّر الشعبية أو بعض النصوص الشعرية عند المتنبي و أبي العلا المعري، غير أنّ ما يميز هذا التمثيل المضاد كما يسميه الباحث هو ضعفه أمام مركزية الخطاب العربي فنموذج عنترة بن شداد لم يجسد صورة مضادة بقدر ما كانت خطوة إلى الأمام بغية التخفيف من سواده يقول نادر كاظم في الصدد "وهكذا فإنّ تمكن عنترة من التخلص من عبوديته بفروسيته و فحولته الشعرية، فإنَ التخلص من سواد الجلد ليس متاحا و لا هو من الممكنات، فهي خصلة لصيقة به، قد تنوب عنه حين ينادونه بالأسود". [18]

وعندما يهيمن التمثيل باعتباره ثقافة مقيدة فإنَه يشيع ثقافات تقوم على المراوغة و الكذب و النفاق و الصراع و التعويض و الانتحار الرمزي المادي، و الاستكانة إلى الإحباط و التذمر و بالتالي الهروب من الواقع بإبدالات تعويضية مقاومة تعد تمثيلا مضادا هي الأخرى.

والمتتبع لثقافة العربية الإسلامية يلحظ مدى ارتباط التمثيل بالأنساق الثقافية التي تشكل ضمنها الآخر و هذا وفقا لمركزية الإسلام ،لهذا نجد العديد من المصنفات في المفاضلة بين السود و البيض ومن بينها رسالة فخر السودان على البيضان لأبي عثمان عمرو بن الجاحظ والذي يمثل السود و يدافع عنهم و يطنب في تعدد مفاخرهم و مناقبهم الكريمة الجسدية و الروحية، و منها الشجاعة و شدة البأس و قوة الأبدان و فخامة البنية " و ليس في الأرض أمة في شدة الأبدان و قوة الأسر أعمُّ منهم فيها، و إنّ الرجل ليرفع الحجر الثقيل الذي تعجز عنه الجماعة من الأعراب و غيرهم، و هم شجعاء أشداد الأبدان أسخياء، وهذه خصال الشرف"[19]

فالتمثيل المضاد أخذ شكل المقاومة المباشرة مع شعراء سود آخرين يختلف عن موقف عنترة الذي كان بحثه ليس اللون بقدر ماهو عن النسب فقط و إلحاقه بأبيه، وأبرز الشعراء كل من الحيقطان وحفاف بن ندبة ،سليك بن السلكة و غيرهم الذين مثلوا صوت المعارضة "فجميع هؤلاء الشعراء نظموا قصائدهم في حالة من الاستشارة و الغضب من نظرة الثقافة الدونية و الانتفاضة من سوادهم و ثقافتهم"[20] لكن الثقافة الرسمية العربية حسب الناقد نادر كاظم، لم ترحم هؤلاء الشعراء بل غطت على معارضتهم كونها تمثل النسق الثقافي الأقوى.

مهما يكن أمام هيمنة التمثيل الثقافي يبقى رهان الفرد أن يبحث عن منافذ للتخلص من تلك الأيديولوجيات القاتلة التي تدمر النفس و ذلك باعتماد آليات تفكيكية مضادة و لو تعويضية، بحيث لن تكون لهذه العقلية تبعا لذلك التي عاشت النمطية و التسلط و القهر القدرة على التفكير و التحليل إن لم تقم مسافة مع التمثيل المضاد المؤسس على التعويض و التنميط على

حد سواء، و يبقى ذلك الرهان ثقافة مؤجلة لطالما أن بيئة الاختلاف و الإيمان به و شروط تحققه يتطلب استعداد ثقافيا يتأسس على المكاشفة و نقد الذات.

الخاتمة:

الدراسات الثقافية المتنوعة أبرزت قيمة معرفية مهمة تمثلت في ما يسمى بمصطلح التمثيل الثقافي الذي يعدّ ركيزة أساسية في مجال النقد الثقافي، حيث لعب دورا هاما في عملية استثمار مجموعة من الأبحاث و التحليلات الثقافية التي تتمظهر حول الابداع السردي بشكل عام، و السرد الروائي بشكل خاص، و هذا ما نلحظه عند المفكر ادوارد سعيد الذي اعتمد على مفهوم التمثيل الثقافي في قراءة النص من خلال تلك الاستقصاءات العميقة التي مارسها في هذا المجال، و رغم استفادة النقد الثقافي من الكثير من المصطلحات التي اجتلبها من حقول مجاورة و تبنيه لها إلا أنّه ما يزال في مرحلة الفتوّة النقدية كونّه يمارس تلك الآليات وقف أنساق ثقافية مرسومة على متون الأعمال الأدبية، كما يلاحظ تلك النظرة الدونية من صراع ايديولوجي بين مُهَيْمَن و مُهَيْمِن عليه.

هوامش البحث:

* على سبيل المثال نذكر: أهم رواد المنهج الثقافي الفيلسوف الفرنسي ميشال فوكو من خلال كتابيه (تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي) و (الكلمات و الأشياء) و و يأتي ريتشارد هوجارت كتابه (فوائد القراءة و الكتابة) (....) ينظر: صورية جغبوب، النقد الثقافي: مفهومه، حدوده، و أهم رواده، مجلة كلية الآداب و اللغات جامعة خنشلة، العدد الأول، 2015،ص: 30-32.

[1] Robert Dictionnaire de la langue Francaise1 reimpression et mise a jour mars 1994 page 1943. نقلا عن إدريس الخضراوي : الرواية العربية و أسئلة ما بعد الاستعمار رؤية للنشر و التوزيع،ط1،2012 ص 54

[2] عبد الله إبراهيم: السردية العربية الحديثة، تفكيك الخطاب الاستعماري و إعادة تفسير النشأة،المركز الثقافي العربي ،ط1،بيروت، الدار البيضاء،2003،ص59.

[3] ينظر كوني بينيت وآخرون: بمفاتيح اصطلاحية جديدة معجم مصطلحات الثقافة و المجتمع ترجمة سعيد الغانمي ، المنظمة العربية للترجمة،ط1،بيروت، 2010، ص213.

**فوكو، ميشال (1926-1984) Foucault, Michel:يعد فوكو شخصية رئيسية في الفلسفة الفرنسية، ارتبطت أعماله بأفكار ما بعد البنيوية، و أصبح له تأثير كبير جدا في الدراسات الثقافية المعاصرة. متأثرا بنيتشه، سعى فوكو لاكتشاف الممارسات الخطابية المختلفة التي تمارس سلطةً على الأجساد الإنسانية ولكن دون التزام بأي نظام بنيوي تحتي أو سلطة محددة نهائيا. كما حاول أن يتعرف إلى الظروف التاريخية و القواعد المحددة لتشكيل الخطابات، و اشتغال السلطة/المعرفةفي الممارسة الاجتماعية التي تحقق تنظيم المعنى. كثير من أعمال فوكو اهتمت بالتحقيق التاريخي في السلطة التي يعتبرها مبثوثة بشكل مجهري في نسيج النظام الاجتماعي، و السلطة كما يرى فوكو ليست قمعية فقط بل إنتاجية كذلك (على سبيل المثال: إنتاج الذاتية). ومن أهم كتبه: (تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي، تاريخ الجنسانية، الكلمات و الأشياء ...).

[4] ميشيل فوكو: الكلمات و الأشياء، ترجمة: مطاع صفدي،سالم يفوت، بدر الدين عرودكي، جورج أبي صالح،كماللأسطفان، مراجعة: مطاع صفدي، دط، مركز الإنماء القومي، بيروت لبنان،1990،ص ص 36-38.

[5] ينظر: عبد الرزاق الراوي: التخييل و التمثيل في الخطاب،2004 ص 141،
https://ouvrages.crasc.dz/index.php/fr/17-philosophie,-m%C3%A9moire-

[6] مجدي وهبه: معجم مصطلحات الأدب،ط1 ، مكتبة دار لبنان، بيروت 1994،ص:323.

[7] عبد النبي ذاكر: الرحلة العربية إلى أوروبا و أمريكا و البلاد الروسية خلال القرنين التاسع عشر و العشرين، ط1، دار السويدي للنشر و التوزيع، أبوظبي 2005،ص:84.

[8] إدريس الخضراوي: الرواية العربية و أسئلة ما بعد الاستعمار،رؤية للنشر و التوزيع،ط1، 2012، ص 59.

[9] أرثرأيزبرجر: النقد الثقافي، ترجمة وفاء إبراهيم و رمضان بسطاويسي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة،ط1،2003 ، ص30.

[10] محسن جاسم الموسوي: النظرية و النقد الثقافي،المؤسسة العربية للدراسات و النشر،بيروت، ط1، 2005، ص12.

[11] كريس باكر: معجم الدراسات الثقافية، ترجمة جمال بلقاسم، دار للنشر و التوزيع، مج 1، ط1، سنة 2018 ص 112.

[12] عبد الرزاق هيضراني: التمثيل الثقافي و التمثيل المضاد،4 ماي 2016ص1،
https://www.hespress.com/opinions/304897.ht

[13] نادر كاظم: تمثيلات الآخر: صورة السود في المتخيل العربي في العصر الوسيط، المؤسسة العربية للدراسات و النشر،بيروت،ط1، 2004، ص10.

*** سعيد، إدوارد (1935-2003) Said, Edward: سعيد ولد في فلسطين ولكن هاجر إلى الولايات المتحدة الولايات حيث تلقى تعليمه في جامعة برنستونوبيل قبل أن يصبح أستاذا بجامعة كولومبيا (نيويورك). المواضيع الرئيسية التي دارت حولها أعمال سعيد كانت حول الثقافة والامبريالية، كما اعتبر واحد من الكتاب المشهورين في ميدان الأدب ما بعد الكولونيالي و النظرية و بشكل خاص، كان عمله العظيم حول الاستشراق Orientalism مهتما بتطبيق نظريات فوكو - حول الخطاب و السلطة- على العلاقات الثقافية و السياسية بين الشرق و الغرب. و بالتالي، فالشرق كان مفهوما من قبل سعيد كبناء خطابي محدد بشكل تاريخي، و مؤسس بواسطة المتخيل و المعجم الغربيين، الأمر الذي أدي إلى توليد معنى الشرق و هيمنة الغرب عليه. و في نفس الوقت، رفض سعيد فكرة أن الشرق ظل سلبيا خلال و بعد الامبريالية الغربية. و من أهم كتبه: (الاستشراق، الثقافة و المقاومة، المثقف و السلطة، خيانة المثقفين ....)

[14] عبد الله إبراهيم: التمثيل و السرد-إدوارد سعيد و توظيف المفهوم- عن الموقع الإلكتروني لشبكة الذاكرة الثقافية:www.althakira.net

[15] إدريس الخضراوي: الرواية العربية و أسئلة ما بعد الاستعمار،ص83

[16] مصطفى ماروتش: السرد المضاد ، الاستطراد و الرفض، ضمن كتاب: الحق يخاطب القوة، إدوارد سعيد وعمل الناقد،تحرير: بول بوفيه، تر:فاطمة نصر، كتاب سطور،ط1 ،القاهرة، 2001، ص 259.

[17] إدريس الخضراوي: الأدب موضوعا للدراسات الثقافية، جذور للنشر، ط1،الرباط، 2007 ص 101.

[18] نادر كاظم: تمثيلات الآخر: صورة السود في المتخيل العربي في العصر الوسيط،ص 506

[19] رسائل الجاحظ: تحقيق عبد السلام محمد هارون، 1- 195 نقلا عن عباس محمد رضا البياتي و مثنى حسن عبود الخفاجي" الانحياز اللوني(مركزة السود و تهميش البيض) في رسائل الجاحظ (ت255)، مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية و الإنسانية جامعة بابل،ع 29، تشرين أول 2016.

[20] نادر كاظم: تمثيلات الآخر: صورة السود في المتخيل العربي في العصر الوسيط ، ص527

قائمة المصادر و المراجع

- صورية جغبوب، النقد الثقافي: مفهومه، حدوده، و أهم رواده، مجلة كلية الآداب و اللغات جامعة خنشلة، العدد الأول، 2015.
- Robert Dictionnaire de la langue francaise 1 reimpression et mise a jour mars

1994page1943 نقلا عن إدريس الخضراوي: الرواية العربية و أسئلة ما بعد الاستعمارية، رؤية للنشر و التوزيع، ط1، 2012.

- عبد الله إبراهيم: السردية العربية الحديثة، تفكيك الخطاب الاستعماري و إعادة تفسير النشأة، المركز الثقافي العربي، ط1، 2003.
- كوني بينيت و آخرون: بمفاتيح اصطلاحية جديدة معجم مصطلحات الثقافة و المجتمع ترجمة سعيد الغانمي، المنظمة العربية للترجمة، ط1، 2010.
- ميشل فوكو: الكلمات و الأشياء، ترجمة مطاع صفدي، و آخرون، مركز الإنماء القومي، دط، 1990.
- عبد الرزاق الراوي: التخييل و التمثيل في الخطاب، 2004، 2-10-2019، https://ouvrages.crasc.dz/index.php/fr/17-philosophie,-m%C3%A9moire-
- مجدي وهبه: معجم مصطلحات الأداب، مكتبة دار لبنان، ط1، 1994.
- عبد النبي ذاكر: الرحلة العربية إلى أوروبا و أمريكا و البلاد الروسية خلال القرنين التاسع عشر و العشرين، دار السويدي للنشر و التوزيع، ط1، 2005.
- إدريس الخضراوي: الرواية العربية و أسئلة ما بعد الاستعمار،رؤية للنشر و التوزيع،ط1، 2012.
- أرثرأيزبرجر: النقد الثقافي، ترجمة وفاء إبراهيم و رمضان بسطاويسي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرةط1،2003.
- رسائل الجاحظ: تحقيق عبد السلام محمد هارون، 1- 195 نقلا عن عباس محمد رضا البياتي و مثنى حسن عبود الخفاجي" الانحياز اللوني(مركزة السود و تهميش البيض) في رسائل الجاحظ (ت255)، مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية و الإنسانية جامعة بابل،ع 29، تشرين أول 2016.
- إدريس الخضراوي: الأدب موضوعا للدراسات الثقافية، جذور للنشر، ط1،الرباط، 2007 .
- محسن جاسم الموسوي: النظرية و النقد الثقافي،المؤسسة العربية للدراسات و النشر،بيروت، ط1، 2005.
- كريس باكر: معجم الدراسات الثقافية، ترجمة جمال بلقاسم، دار للنشر و التوزيع، مج 1، ط1، سنة 2018.
- عبد الرزاق هيضراني: التمثيل الثقافي و التمثيل المضاد،4 ماي 2016،29-09-2019، https://www.hespress.com/opinions/304897.ht
- نادر كاظم: تمثيلات الآخر: صورة السود في المتخيل العربي في العصر الوسيط، المؤسسة العربية للدراسات و النشر،بيروت،ط1، 2004.
- مصطفى ماروتش: السرد المضاد ، الاستطراد و الرفض، ضمن كتاب: الحق يخاطب القوة، إدوارد سعيد وعمل الناقد،تحرير: بول بوفيه، تر:فاطمة نصر، كتاب سطور،ط1 ،القاهرة، 2001.